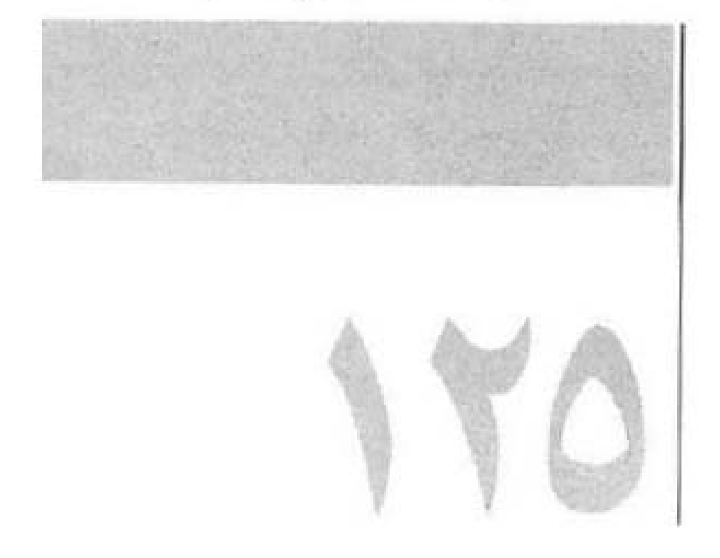


رواسب استشراقية في وجوه من الكتابات الأنكلو-أمريكية عن العرب والإسلام

د. عبد النبي اصطيف (*)

يكتب ادوارد سعيد عن استقبال كتابه خلال ما يقرب من عقدين من السنين في الفصل الذي ألحقه خاتمة جديدة بطبعة عام ١٩٩٥ من كتابه «الاستشراق: التصورات الغربية للشرق» فيقول:

«لقد أردت بكتابي أن يكون جزءاً من تيار فكري موجود مسبقاً كان غرضه تحرير المثقفين من أصفاد أنظمة مثل الاستشراق: أردت القراء أن يستخدموا عملي

(*) د. عبد النبي اصطيف: أستاذ الأدب المقارن والنقد الحديث في جامعة دمشق، وهو من أبرز المعنيين بكتابات إدوارد سعيد.

- العمل الفني الفنان عبد الرحمن مهنا.

لعلهم ينتجون عندئذ دراسات جديدة خاصة بهم يمكن أن تغير التجربة التاريخية للعرب وغيرهم وفق طراز غني وقادر. وذاك ما حدث بالتأكيد في أوروبة، والولايات المتحدة، وأوسترالية، وشبه القارة الهندية، والدول الكاريبية. وإيرلندة، وأمريكة اللاتينية، وأجزاء من إفريقية. إن للدراسة الباعثة على النشاط للإنشاءات الإفريقية والهندية، وتحليلات تاريخ التابع والثانوي، وإعادة تصور الأنتروبولوجية المابعد استعمارية، وعلم السياسة، وتاريخ الفن، والنقد الأدبي، وعلم الموسيقى، إضافة إلى التطورات الجديدة الهائلة في الإنشاء النسوي، وإنشاء الأقليات لكل هذه، شكل الاستشراق فارقًا في الغالب، وأنا مسرور به وراض عنه».

ولكن سرور سعيد ورضاه ينقلبان خيبة عندما يتصل الأمر بتأثير كتابه في تمثيل الإسلام والعرب في أجهزة الإعلام المقروءة والمرئية في الغرب، وعندما يسأل من جانب صحيفة هيرالد تريبيون الدولية «هل تحسّن موقف الغرب منذ أن نشرت كتاب «الاستشراق» عام ١٩٧٨؟» نراه يجيب على نحو قاطع:

«لاأعتقد أنه تحسن على الإطلاق. الحقيقة أنه ساء على نحو إرادي. فإذا ماانظرت إلى الطريقة التي يمثل بها الإسلام اليوم في الصحف وفي التلفزيون، فإنك ترى أنه لايزال يُعد تهديداً، أنه شيء ينبغي أن يُعزل. والوطن العربي يصور على أنه مكان مليء بالإرهابيين والمتزمتين. إن فهم الغرب للوطن العربي يتقلص بدلاً من أن يتسع».

والواقع أنه على الرغم من التأثير الهائل والواسع النطاق والمتعدد الوجوه لكتاب الاستشراق في العوالم الثلاثة: الغرب، والمشرق الاشتراكي الذي كان يتداعى، والعالم الثالث الذي يعيش عالم ما بعد التحرر من الاستعمار التقليدي، مرحلة الاستعمار عن بعد، فإن تأثيره في تغيير طبيعة المعرفة الاستشراقية ووظيفتها من جانب، وفي التغطية الإعلامية، التي تصنع بوسائلها المختلفة، الرأي العام في المجتمعات الغربية بشكل خاص، والعالم بشكل عام، ظل محدوداً إلى حد ما. ذلك أن سعيداً لم يستطع أن يغير جذريًا المنظور الاستشراقي القائم على شرخ وجودي ومعرفي في تدبر علاقة الشرق بالغرب. ومع أنه هيأ المناخ الفكري لنقد جريء ومنظم للاستشراق التقليدي، ولاسيما من جانب الباحثين الغربيين الجدد الذين أرادوا أن يقطعوا مابينهم وما بين هذا الموروث المعيق للإرادة الفردية في إنتاج معرفة إنسانية تقارب موضوعها مقاربة الراغب في الارتقاء بجوانب حياته، وفي تحسين صورته في الأوساط الغربية من خلال تقديم صورة أكثر تمثيلاً لواقع



الحال، وبالتالي السعي إلى تبديد الجهل وسوء الفهم بين الغرب والإسلام، فإن الباحث لايزال يجد في النتاجات المعاصرة للمعرفة المتصلة بالشرق العربي والإسلام رواسب من المنظور الاستشراقي التقليدي، يبدو أنها بحاجة إلى سعيد آخر، أو أكثر من سعيد آخر، يتولى تطهيرها من مختلف فيروسات المعرفة الاستشراقية التقليدية، حتى نستطيع إنتاج معرفة تحترم التنوع الخلاق الذي أراده خالق الإنسانية، ولاتنظر إلى الاختلاف لدى «الآخر» على أنه إعاقة وشذوذ وخروج على المألوف وتكفّ عن قياسه بنفسها والحكم بمعاييرها وقيمها.

وفي محاولة للإسهام في عملية التطهير هذه، يودّ صاحب هذه السطور أن يعمد إلى تفحّص نماذج من المعرفة التي ينتجها «الآخر» (أو من وضع نفسه موضع «الآخر» كما سنرى لاحقًا) عن العرب والمسلمين، ولاسيما «الآخر» الأنكلو-أمريكي بسبب خبرته به، وبيان ما تنطوي عليه من رواسب كان يفترض بها أن تختفي من هذا الضرب من الكتابات عن ثقافات «الآخر» وتواريخه ومجتمعاته ومواريثه، وخاصة في الظروف الراهنة التي تعمل فيها قوى مختلفة، محفوزة بدوافع ومصالح دنيوية، على تأجيج حدة الصراع بين الثقافات ولاسيما بين الغرب والإسلام.

وربما كان من أبرز ما يميز هذه النماذج أن معظمها موجه إلى قارئ مختلف عن قارئ المعرفة الاستشراقية، قارئ معنيّ بمعارف أخرى كالأدب المقارن والدراسات الاجتماعية والثقافية والأدبية وبالتالي فإنها تستهدف بشبكتها متلقيًا من دائرة أوسع من دائرة الدراسات الإسلامية، أو الشرق- أوسطية، أو العربية الضيقة، ومعنى هذا أن تأثيرها سيكون أكبر لسببين:

❖سعة انتشارها من جهة؛

❖ ولكون قارئها غير خبير بالمنطقة، أو ليس على درجة كافية من الخبرة والمعرفة بموضوعها تخوله تفحص ما يتلقاه من خلالها من جهة أخرى.

أي أن خطرها في نشر معلومات وانطباعات غير صحيحة عن العرب والمسلمين أكبر بكثير من المعلومات التي تنطوي عليها أشكال المعرفة الاستشراقية التقليدية التي تستهدف القارئ المتخصص أو القارئ المعني بالمنطقة على نحو خاص.

موسوعات ومراجع عامة

وقد اخترت منها ثلاثة هي:

أولاً موسوعة أكسفورد للعالم الإسلامي الحديث، التي تقع في أربعة مجلدات، حررها جون إسبوزيتو الباحث المعروف عالميًا بموضوعيته وتعاطفه المحمود مع موضوعه، وبسعة اطّلاعه، وبنزعته النقدية في تعامله مع الاستشراق التقليدي؛ أصدرتها **مطبعة جامعة أكسفورد** في نيويورك وأكسفورد عام ١٩٩٥

ثانيًا أطلس الأدب الذي حرره الروائي والأستاذ الجامعي والناقد الإنكليزي المشهور مالكولم برادبري وصدر عن دار دي أغوستيني في لندن ونيويورك عام ١٩٩٦؛

ثالثًا دليل صحيفة التايمز للشرق الأوسط، الذي حرره بيتر وماريو فاروق سل غ ليت المعروفان بصلتهما الحميمة بالمنطقة، وبتعاطفهما وتفهمهما الملحوظ للقضية العربية وصدرت طبعته الثالثة عن **مطبعة التايمز** عام ١٩٩٦.

منشورات دورية:

١) دورية **التحقيق النقدي** التي تصدر عن **مطبعة جامعة شيكاغو** منذ أكثر ربع قرن، والتي خصصت عددًا من ملفات مجلداتها الصادرة بين صيف ١٩٩٢ وصيف ١٩٩٤ لموضوع الهويات، ثم ما لبثت أن جمعت أبرز ما نشرته فيها من مقالات وبحوث واستجابات نقدية في مجلد نشرته مطبعة الجامعة نفسها عام ١٩٩٥ تحت عنوان «**هويات**» وعهدت بتحريره إلى كل من كوامي أنتوني أبيا وهنري لويس غيت (الابن) الأستاذين في جامعتي هارفرد وقد

شارك في كتابة هذه المقالات والبحوث والاستجابات النقدية جمع من كبار المعنيين بهذه القضية في العالم الأنكلو- أمريكي. وربما كان من أبرز ما يهمنا في هذا المجلد مقالة «ما المسلم؟ الالتزام الأساسي والهوية الثقافية» لعقيل بيلغرامي أستاذ الفلسفة في جامعة كولومبيا، وذلك لما تنطوي عليه من رواسب استشراقية تقليدية.

٢) دورية **النقد المقارن** وهي الكتاب السنوي لـ **الرابطة البريطانية للأدب المقارن** التي صدر منها نحو من عشرين عددًا نشرتها جميعًا **مطبعة جامعة كامبريدج** بتحرير إيلينور شافر أستاذة الأدب المقارن في **مدرسة اللغات الحديثة والتاريخ الأدبي في جامعة إيست أنغليا**، في نوريتش، والباحثة المعنية بالرومنتية وأصولها وصلتها بالشرق والتي صدر لها عام ١٩٧٥ عن **مطبعة جامعة كامبريدج** ذاتها كتاب «**كوبلاخان**» **وسقوط القدس: المدرسة الأسطورية في النقد التوراتي والأدب العلماني** ١٧٧٠- ١٨٨٠، والذي ظفر بإطراء خاص من جانب ادوارد سعيد في مقدمته لكتاب **الاستشراق**.

٣) مراجع جامعية:

وقد اخترت منها مرجعًا واسع الانتشار في المقررات الجامعية المتصلة بقضايا الهوية والدراسات الثقافية وهو كتاب مانويل كاستيلز «**قوة الهوية**» وهو المجلد الثاني في ثلاثية المؤلف عن «**عصر المعلومات، الاقتصاد والمجتمع والثقافة**» التي أصدرتها دار النشر الشهيرة **بلاكويل** في أكسفورد في التسعينات لتغدو مراجع لاغنى عنها في أقسام العلوم الإنسانية في مختلف الجامعات الغربية.

الموسوعات والمراجع العامة

❖ موسوعة أكسفورد للعالم الإسلامي الحديث

تهدف الموسوعة، كما يوضح محررها الرئيس، إلى فهم العالم الإسلامي في ضوء الثورة الإيرانية التي شهدها عام ١٩٧٩، وفي سياق التوسع الغربي الإمبريالي والاستعماري منذ القرن الثامن عشر، وهي أهداف لاخلاف عليها، ولاجدال في نبلها، ولكن المستغرب حقًا في هذه الموسوعة الممتازة حقًا بما تنطوي عليه من مؤشرات إيجابية، لايتسع المجال هنا للوقوف عندها، هو إغفالها لمدخل عن «فلسطين» التي تشكل قضيتها محورًا هامًا من محاور الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية للأمة العربية والعالم الإسلامي. وإذا ما بحث المرء عن هذا المدخل في المؤشر فإن يحال على «الضفة الغربية وقطاع غزة»، وأما إن رغب في البحث عن مدخل يتصل بالفلسطينين فإنه لن يجده إلا تحت عنوان رئيس آخر هو «اللاجئون»، و«ياسر عرفات» مستبعد

كذلك، ربما باستبصار يستبق المحاولات الأمريكية الراهنة لتحجيم دوره في عملية السلام. ولايدري المرء كيف يمكن فهم العالم الإسلامي والوطن العربي من جانب، ومحاولة تعزيز التفاهم بينهما وبين الغرب من جانب آخر دون دراسة قضية فلسطين التي تدخل في صلب العلاقة المتوترة منذ زمن بين الطرفين. ولنستمع على أي حال إلى ما يقوله غلين روبنسون- أحد المسهمين في **دليل التايمز للشرق الأوسط**- عن قضية فلسطين:

«لقد لازمت قضيةُ فلسطين الشرق الأوسط في كامل القرن العشرين، مسببة حروبًا كثيرة، وأعمال إرهاب، وانقلابات عسكرية، وبؤسًا ومعاناة إنسانيين واسعي الانتشار. لقد حددت مشكلة فلسطين والفلسطينيين، وأكثر من أية قضية أخرى منفردة، الخطوط السياسية والاجتماعية للشرق العربي المعاصر. وقد أُحِسَّ بتأثيرها، بالفعل، في الشرق الأوسط كله، والعالم، مهددة مرتين تقريبًا بحربين نوويتين كونيتين. وساعدت القضية الفلسطينية على إنتاج مستوى من العسكرة في المنطقة لايُجارى في العالم، مع دول تحضّر للحرب بدلاً من التنمية. وباختصار، لقد شكلت فلسطين والفلسطينيون، مسألة محددة لهذا القرن، وربما يستمران في فعل ذلك في القرن القادم».

ولنتأمل بعد ذلك في عقابيل إغفال الموسوعة لـ «فلسطين» في مجلداتها الأربعة. وما يمكن أن يساعد ذلك في مساعدة قارئها على فهم هذا العالم الإسلامي الحديث. ولكن المرء من ناحية أخرى لايستطيع أن يفسر هذا الإغفال بمعزل عن محاولة الاستشراق الصهيوني (مدعومًا من شخصيات ومؤسسات ودوائر في الاستشراق التقليدي) الدائبة لمحو كل ما يتصل بالوجود الفلسطيني، أرضًا وشعبًا وثقافة ومجتمعًا وتاريخًا، إن فلسطين كانت في الكتابات الصهيونية باستمرار أرضًا بلاشعب لتغدو وطنًا قوميًا لشعب بلا أرض.



❖ أطلس الأدب

يتضمن أطلس الأدب مقالة يتيمة عن الأدب العربي لاتتجاوز ثلاث صفحات (ص ص ٢٩١- ٢٩٣)، تقتسمها صور الأماكن والأشخاص والخرائط والنصوص المقدسة، فضلاً عن متن المقالة التي كتبتها فاديا الفقير تلميذة برادبري محرر **الأطلس**. وإذا ما تجاوز المرء كون المقالة معنيّة أساسًا بالأدب العربي الحديث (وما ينطوي عليه هذا التخصيص من دلالة ربما كانت أن العرب لم يعرفوا المدينة إلا في حاضرهم البائس)؛ وأن كاتبتها تنفق ثلثها الأول للحديث عن مدينة الإسكندرية بين

الشاعر اليوناني قسطنطين كفافي، والروائي الأنكلو- إيرلندي لورانس داريل، والروائي العربي حامل جائزة نوبل للآداب نجيب محفوظ؛ وأنها لاتكاد تجاوز المشرق العربي في إشاراتها المتصلة بالأعلام والأماكن، فإن مما يصعق فيها عنوانها المثير لجمهرة من التساؤلات وهو «**في البحث عن الأندلس، الأدب العربي اليوم**»؛ وحديثها الموحي عن الشاعر العربي الفلسطيني درويش «المسكون حتمًا بالوطن، والهوية، والفقد الفلسطيني»(ص٢٩٢)، والذي يرى نفسه إذ يكتب عن عالمه المضطرب، لاأقل من **سليل للشاعر الإسباني غارسيا لوركا**، ويذكره في قصائد كثيرة («**مؤكداً بذلك هويته المتوسطية و«الأندلسية»**»)؛ وتأملاتها التي تشي بنوع فريد من رواسب الاستشراق الصهيوني الذي كان المظلة المعرفية التي سوغ الصهاينة تحتها سلبهم لفلسطين وذلك عندما نراها تمضي إلى القول:

«الأمر الذي يمضي بنا إلى تاريخ رئيس في الخيال الأدبي العربي وهو عام ١٤٩٢، العام الذي سلم فيه العرب المسلمون الأندلس والحصن الأحمر العظيم الحمراء في غرناطة إلى إيزابيلا وفريديناند. إن فقد الفردوس غير القابل للاسترجاع، والمملكة المتوسطية حيث ازدهرت على نحو غني الزراعة والتجارة والصناعة والعمارة والأدب والمعرفة العربية أو الإسلامية، ربما كان من أعمق الندوب في الروح العربية. وسيحدث ثانية. فبعد أربعة قرون تُفقد فلسطين للصهاينة، وانقطاع آخر للتاريخ ينزل. وكان لتلك الفسحة، في معظم الكتابة العربية منذ ١٥٠٠ وما بعدها، أن تكتسب أبعاداً أسطورية، مجازية، فردوسية أكثر مما كانت من قبل. إنها يوتوبيا حيث تعايشت الأديان في انسجام، وازدهرت الفنون، ونما عصر العرب الذهبي، ظافراً بإعجاب أوروبة الوسيطة. إن مهمة توديع الأندلس تغدو محاولة استعادة لها، مع أراض أخرى إلى جانبها. وقصيدة درويش «أحد عشر كوكبًا فوق الأندلس» (هكذا ترجمتها الكاتبة والصواب بالطبع «أحد عشر كوكبًا على آخر المشهد الأندلسي») استدعاء شعري حي للإحساس بالفقد والانقطاع للذاكرة والروح» (ص٢٩٣).

وتختتم المؤلفة تأملاتها المروّعة في علاقة العرب ودرويش بالأندلس على النحو التالي:

«ولكن روح المقاومة في الكتابة العربية لم تقتصر على ردة الفعل على الإمبريالية التمثيلية Fictional والحقيقية جداً» (٢٩٣).

نعم، هكذا تبدو الأندلس في منظور فادية الفقير مجرد فسحة يوتوبيا فقدها العرب إلى الأبد بكل ما فيها من سمات فردوسية كالتسامح وازدهار الفنون

والمعارف والعلوم، فسكنهم الحنين إليها وصار أدبهم الحديث استعادة دائمة لها. والشأن نفسه شأن فلسطين التي فقدها العرب بعد أربعة قرون للصهاينة (الذين ربما كانوا أصحابها الفعليين كما هو شأن الإسبان أصحاب الأندلس الفعليين)، والحنين إليها لايزال يسكن شاعرًا عظيمًا كدرويش الذي يحاول من خلال استعادة الأندلس تأكيد هويته المتوسطية والأندلسية.

وهل ثمة بعد هذا الإفصاح المبين عن هذه النزعة الاستشراقية الصهيونية حاجة إلى أي تعليق، خلا الإشارة إلى أن مقالة فادية قد جاءت مباشرة بعد مقالة بثلاث صفحات خصصت «للكتابة الإسرائيلية المعاصرة» (ص ص٢٨٨-٢٩٠)- تحقيقًا للعدالة والمساواة بين أطراف الصراع في المنطقة- وتضمنت صورة للمهاجرين، وأخرى للقدس الملفعة بغيمة نبوّة، على حد تعبير الكاتب أو المحرر، وثالثة لأموس عوز، وخارطة لإسرائيل يمتد اسمها من الغرب إلى الشرق ليشمل الضفة الغربية، وتتوزع عليها المستوطنات التي غدت فسحًا للكتاب الإسرائيليين المهاجرين (أو- بمنطق الأطلس- العائدين إلى موطنهم الأصلي عودة الإسبان إلى الأندلس التي استعادوها من العرب، تمامًا كما استعاد الصهاينة فلسطين منهم أيضًا).



❖ دليل التايمز للشرق الأوسط

يتضمن الدليل ثمانية عشر فصلاً ومدخلاً وبيبلوغرافيًا فضلاً عن المؤشر، وقد خصصت مقالة منفردة لكل من مصر، وإيران، والعراق، وإسرائيل، والأردن، ولبنان، وليبيا، والمملكة العربية السعودية، والسودان، وسورية،وتركية، واليمن تتالت مرتبة على حروف الهجاء، كما خصصت مقالة مشتركة لكل من دول الخليج، والمغرب، وفي حين تم الحديث عن الأكراد والفلسطينيين في مقالتين خاصتين، ومناقشة «النفط في الشرق الأوسط» و«الإسلام» في مقالتين مستقلتين.

وكما يتبين من توزيع الفصول وعناوينها فإن تخصيص فصل مفرد قد اقتصر على دول دون أخرى، لأسباب تتعلق بالمسهمين في كتابة فصول الكتاب. ولكن اللافت للنظر، وعلى الرغم من الأهمية الكبرى التي يعزوها غلين روبنسون لقضية فلسطين، وقد تقدمت شهادته فيها، من ناحية، وحديثه الموضوعي والمتعاطف إلى حد ما مع معاناة الشعب العربي الفلسطيني الذي يتحدث عنه من خلال مفاصل تاريخية رئيسية هي:

❖ فلسطين في الفترة العثمانية المتأخرة؛

❖ فلسطين تحت الانتداب البريطاني؛

❖ ١٩٤٨: النكبة والمنفى؛

❖ حرب ١٩٦٧ ومابعدها: استجابة الشتات؛

❖ حرب ١٩٦٧ وما بعدها: الفلسطينيون في الضفة الغربية وقطاع غزة؛

❖ الانتفاضة؛

حرب الخليج الثانية؛

اتفاق أوسلو وبداية الاستقلال المحدود؛

❖ الصعوبات المنتظرة.

وعلى الرغم من وضع يده على عقب أخيل اتفاق السلام الموقع في أوسلو والذي أبقى أكثر المسائل إشكالية دونما حل وهي (القدس، والمستعمرات، والشتات الفلسطيني، والسيادة)، فإن المرء لايسعه إلا أن يذكّر بأن عدم تخصيص فصل لـ «فلسطين» بوصفها كيانًا حديثًا (مثله مثل سورية، ولبنان، والأردن) كان حصيلة لاتفاق سايكس -بيكو، ويسرّت دولة الانتداب إقامة وطن قومي لليهود فيه على حساب الحقوق الوطنية المشروعة لسكانه الأصليين وما نجم عن ذلك من مشكلات مسّت جميع وجوه الحياة في الوطن العربي، ولاسيما في دول الطوق، ينطوي على افتراضات وشكوك تتصل بالحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني في تقرير مصيره وإقامة دولته المستقلة ذات السيادة، أسوة بباقي دول المشرق العربي التي شرعتها معاهدة سايكس- بيكو المشؤومة. وهو أمر يدخل كما تقدم في صلب التفكير الاستشراقي المسوّغ للتدخل الاستعماري والصهيوني في المنطقة وإعطاء الانطباع بأن كل ما حدث كان نتيجة طبيعية لجملة من التطورات السياسية والاقتصادية التي كان الغرب من ورائها سعيًا منه إلى الحفاظ على مصالحه في المنطقة. وربما كان أقرب ما يخرج به القارئ من انطباع عن الفلسطينيين هي أن حالهم هي حال الأكراد نفسها، وأن معاناتهم، هي معاناة الأكراد، وأنهم لم يكونوا في نهاية المطاف أصحاب أرض ووطن قومي، وبعبارة أخرى لقد كانوا شعبًا بلا أرض، يناضل من أجل إثبات حقه في أرض هي موضع نزاع مع «دولة إسرائيل» التي تنكر عليه حتى وجوده.

❖ ❖ ❖

المنشورات الدورية:

❖ دورية التحقيق النقدي

تتبع أهمية مقالة «ما المسلم؟ الالتزام الأساسي والهوية الثقافية» لعقيل بيلغرامي أستاذ الفلسفة في جامعة كولومبيا ومؤلف عدد من الكتب المتصلة بـ **الاعتقاد والمعنى** (١٩٩٢)، ومعرفة **النفس والقصيدة** (قيد النشر) وغيرهما، من كون صاحبها يجمع ما بين الداخلي Insider والخارجي -Out

sider في تناوله لمسألة الهوية الإسلامية من جانب، ومن كونه مختصًا بالفلسفة من جانب ثان، ومن كونه -كما يقر هو نفسه- قد اختار لنفسه موقع العلماني المتشكك بالنظرية اللاهوتية الإسلامية، ووجدها برمتها غير معقولة من جانب ثالث. ولعل هذا الموقف النقدي الذي تبناه منذ البداية، ولاسيما أنه نشأ في أسرة كانت تسودها آراء أب غير متدين، هو ما جعله يربط بين الهوية الإسلامية- بوصفها التزامًا توحيديًا أساسيًا يطغى على الالتزامات الأخرى في حياة المرء- وبين الاستعداد للنظر إلى هذا الالتزام نظرة مساءلة ونقد لايهاب المسلم المعتدل فيه، على حد تعبير بيلغرامي، تفحّص التزامه على ضوء واقعه، ولايبالي بالمواجهة المحتومة مع المسلمين المستبدين absolutists كما يسميهم، ويعني بهم «الأصوليين» بالمفهوم الأمريكي الذين يستدعون النظام اللاهوتي الإسلامي في مواجهتهم للغرب.

وهكذا نراه يكتب:

«إن المسلمين المعتدلين، وبسبب من أن التزامهم بالإسلام محكوم اليوم وإلى درجة كبيرة بوظيفة دفاعية عالية، يجدون أن من الصعوبة بمكان القيام بنقد جوهري ومثابر للنظرية الإسلامية، وهذا، كما قلت، يدعهم عرضة للاستغلال من جانب المساعي السياسية للحركات الاستبدادية التي تستغل النظرية لغاياتها الخاصة بها. إن دفاعيتهم تجعلهم مسكونين بالخوف من أن نقدًا كهذا سيعادل استسلامًا لقوى الغرب التي أظهرت لزمن طويل ازدراء مهيمنًا استعماريًا وما بعد استعماري لثقافتهم»(ص٢١٢).

وربما كان من أكثر الأمور جدارة بالملاحظة في عمل بيلغرامي تصوره لصراع يقوم بين أقلية من المسلمين المستبدين وأكثرية من المسلمين المعتدلين الذين يتهيبون النظر إلى موروثهم نقديًا، ويخشون تفحّصه ومساءلته كي لايتهموا بموالاة الغرب العلماني، بكل ما ضيه الاستعماري البغيض، وتشجيعه للفريق الأخير على إفراغ الإسلام من السياسة والاهتمام بالسور المكية التي تلبي الجوانب الروحية والعالمية في النفس الإنسانية، والقيام بإصلاح جذري لكل ما عداها، على نحو يكفل في نهاية المطاف فتح باب الاجتهاد من جديد، أو بعبارة أكثر صراحة، يفتح بابًا أوسع لتدخل القانون الوضعي في الحياة الإنسانية، ويُحيّد الدين الذي يُستغل من جانب المستبدين الأصوليين لتحقيق مآربهم السياسية البعيدة عن مصالح الأكثرية. أي أن المسلم في رأيه هو المنتقد لالتزامه المطلق بدينه، والساعي إلى فصله عن وجوه حياته التي يحكمها بوصفه التزامًا يطغى على الالتزامات الأخرى، ولاسيما أن جل السور المدنية قد نزلت في

سياقات عفا عليها الزمن، وكان الهدف منها منح بدو الجزيرة الإحساس بالانتماء إلى جماعة موحدة، وأن هذه السياقات قد تغيرت وبالتالي فإن صلة هذه السور المدنية بالحياة الإسلامية باتت ضعيفة، بل إن التمسك بها يعني أصولية استبدادية يرفضها عقيل بيلغرامي ويحذر المسلمين المعتدلين من عواقبها.

إن الطريق الوحيد للقبول بالالتزام التوحيدي أساسًا للهوية الثقافية للمسلمين هو في علمنة موقفهم من الجانب المدني/التشريعي في مصدر تشريعهم الأول (القرآن الكريم)، وفي النظر إليه نقديًا على نحو يفتح باب الاجتهاد من جديد على مصراعيه. وهذا هو الموقف الذي نسبه بيلغرامي إلى نفسه عندما قال إنه قد اتخذ لها موقفًا علمانيًا عدوانيًا مألوفًا لدى من يميلون إلى الشيوعية.

دورية النقد المقارن

هذا ما كان من حديث المسلم وهويته كما تبدو لباحث مسلم، وهو حديث سيتكرر على نحو مشابه عند مناقشة المرجع العام الذي اخترناه أنموذجًا دالاً على ما يبث وينشر من معرفة عن الهوية الإسلامية في العقد الأخير من الألف المنصرمة.

فماذا عن الدورية الأخرى التي أردنا التوقف عندها وهي الكتاب السنوي **للرابطة البريطانية للأدب المقارن** والتي حمل عددها الثامن عشر المخصص لـ **الفسح، المدن والحدائق والبراري** والذي صدر عام ١٩٩٦. يضم هذا المجلد ترجمة لقصيدة محمود درويش المشهورة «أحد عشر كوكبًا على آخر المشهد الأندلسي» أريدت إغناءً لموضوع النجوم والفسح الأوروبية، وقد قام بهذه الترجمة فريق ضم كلاً من منى أنيس، ونايجل رين، وآغا شهيد علي، وأحمد دلال، تعاونوا على إخراجها ترجمة مقروءة وفقوا في جلّها، وكبا بهم اجتهادهم أحيانًا. ولكن، وعلى خلاف المترجمين السابقين اللذين قدّم كل منهما لترجمته الفائزة المنشورة بمقدمة توضيحية ضافية تساعد القارئ على الوقوع على دلالة النص المترجم، والسياقات المختلفة التي تحكمها، فإن مترجمي النص العربي لم يكلفوا أنفسهم هذه المشقة، بل تخلوا عن مهمة التقديم والتعريف للمحررة التي قامت بالتعريف بدرويش على نحو جدير بالملاحظة والتعليق لأنه ينطوي على نزعة استشراقية خفية عمدت إلى طمس مصقول للهوية الوطنية الفلسطينية للشاعر وفنه. كذلك أقدم هؤلاء المترجمون دون مسوّغ- فيما يبدو لي- على اختصار عنوان القصيدة إلى «أحد عشر كوكبًا فوق الأندلس»، ولم يكلفوا أنفسهم ثانية عناء الإشارة إلى العنوان الأصلي. ولننظر على أي حال في تقديم المحررة للشاعر درويش الذي يعد

مثالاً صارخًا على الرواية الاستشراقية، أو السرد الاستشراقي في المتميز، لكل ما يتصل بالشرق، وهو استشراق مضمر مصقول يحاول التستر خلف غربال ساذج من الحيادية والموضوعية والانسلاخ عن المادة المدروسة.

تكتب محررة المجلد معرفة بمحمود درويش (ص X):

«ولد محمود درويش في قرية البروة، (الواقعة) إلى الشرق من عكا، التي دمرت بعد حرب ١٩٤٨. عاش لاجئًا، وغدا ناشطًا سياسيًا في مطلع حياته، منضمًا للحزب الشيوعي الإسرائيلي، راكاح، ومعانيًا من الملاحقة بما فيها السجن، والاعتقال المنزلي (أو الإقامة الجبرية). عاش في الجليل، وحرر لبعض الوقت صحيفة راكاح «الاتحاد» (والتي تترجمها بـ Unity ،والأولى ترجمتها بـ Union). غادر إسرائيل عام ١٩٧١ ليعيش في بيروت، وهو يعيش الآن في عمان، وهو رئيس تحرير المجلة الأدبية الفلسطينية «الكرمل»، وقد نشر أكثر من عشر مجموعات شعرية، أحدثها عهدًا «لماذا تركت الحصان وحيداً» (وقد ترجم العنوان صوتيًا ترجمة غير دقيقة تضمنت ثلاثة أغلاط لاتغتفر) (١٩٩٥) وبالإنكليزية: ذاكرة للنسيان: آب- بيروت- ١٩٨٢ (١٩٩٥)».

كما أنها تشير إلى صلة درويش بمنظمة التحرير الفلسطينية عندما تتحدث عن وجودها الهامشي مقتصرة على استعمال مختصرات «PLO » عند ذكرها. (ص XXV).

ولاريب أن قارئ هذا التعريف بواحد من أبرز الشعراء العرب المعاصرين سيسأل نفسه عن سبب عدم ذكر تاريخ ولادته على سبيل المثال، وهو عام ١٩٤١. هل لأنه يسبق ولادة الدولة العبرية. وبالتالي فإن ذكره يستوجب عندها ذكر موطنه فلسطين التي كانت عندئذ تحت الانتداب البريطاني؟ وسيسأل نفسه كذلك عن حرب ١٩٤٨، وعن الجهة التي قامت بتدمير البروة وعكا وغيرهما، وعن كيفية ولادة الشاعر في قرية ما، ثم عيشه لاجئًا فيها، وعن انضمامه للحزب الشيوعي الإسرائيلي،وعن ملاحقته وسجنه وإقامته الجبرية، وعن الجهة المجهولة التي كانت تقوم بهذه الأعمال، وعن دواعيها. فربما كانت لميوله اليسارية (؟)، وأخيرًا عن هذا الاستبعاد المحكم لأية عبارة أو إشارة تشي بهوية الشاعر العالمي (الذي انتزع بجدارة تقدير العالم لفنه وقضيته، وغدا واحدًا من شعراء الإنسانية المناضلين من أجل مستقبل أفضل لشعبهم وغيره) إلا ما كان من إشارة عجيبة إلى سفره للعيش في لبنان، ثم عيشه بعدها في عمان، ورئاسته تحرير المجلة الأدبية الفلسطينية «الكرمل».

إن القارئ سيسائل نفسه عن كل هذا لأنه يقرأ مجلة بحثية محكمة تصدر عن مؤسسة مهنية محترمة وعن مطبعة جامعة عريقة، ولايقرأ صحيفة أو مجلة موجهة، ولكن يبدو لي أن «تطهير» الأرض الفلسطينية من الشعب الفلسطيني، لابد أن يتبعه طمس أية إشارة إليه في أي مكان وزمان، أو وضعها ضمن سياق من التضمنات المثيرة للتشكيك والخوف والأهواء التي تقرن عادة بالفلسطيني الإهابي العنيف الباحث عن القتل والتدمير.

علمًا أن محمود درويش بات اليوم معروفًا تمامًا لقارئ الإنكليزية. فضلاً عن خمس مجموعات شعرية ظهرت بشكل مستقل بترجمة كل من عبدالوهاب المسيري (١٩٧٠)، ودينيس جونسون ديفيز (١٩٧٤)، ورنا قباني (١٩٨٦) وفواز طوقان وإيان ويد (١٩٧٣)، وبناني (١٩٧٤)، والترجمات الجزئية الكثيرة التي قام بها منح خوري، وعبد الله العذري، وعيسى بلاطة وغيرهم، ثمة مؤلفات عامة عن الشعر العربي الحديث والمعاصر لمحمد مصطفى بدوي، وسلمى الخضراء الجيوسي، وخالد سليمان، وغيرهم تتضمن الكثير مما يساعد على التعريف بالشاعر وفنه؛ وهناك مراجع أدبية عامة، وموسوعات عالمية تدرس شعره وتطوره وأهميته في سياق من الشعر العربي المعاصر، والشعر العالمي أيضًا، وبالتالي فإن شمس الحقيقة لايمكن أن تحجب بهذا الغربال الساذج كما ذكرت.

وأمر آخر هو عدم القيام بشرح السياق الذي أنتجت فيه القصيدة، ودلالة البعد التاريخي الذي يغلب عليها. إن ذلك مدعاة للتساؤل أيضًا، فهل يراد منه الإيحاء على نحو ما بأن صلة محمود درويش بفلسطين ليست أكثر من صلة العربي بالأندلس، وأن كليهما طرد من قبل السكان الأصليين (وهم في هذه الحالة الإسبان، واليهود في فلسطين) ليس إلا؟. وأن الأوضاع الراهنة بكل ما تنطوي عليه من تشريد منظم لشعب بكامله، وما يرافقه من مآس، وظلم وقهر واغتصاب للأرض والمقدسات، هي في الواقع عودة بالأمور إلى نصابها، أو هي نوع من (تطبيع) الواقع.

لايريد المرء أن يسرف في قراءة ما بين السطور، أو في مناقشة دلالة المفصح عنه، أو المسكوت عنه، أو المغفل، أو المستبعد. ولكنه يجد نفسه يتساءل عن كل ما تقدم عندما يقارن التعريف بمحمود درويش بما كتبته المحررة عن كورينا (Corinna) الكاتبة الرومانية الأصل التي هاجرت لتقيم في الدولة العبرية، والتي ضم المجلد ترجمة لروايتها القصيرة (كشف). وتقديمًا مسهبًا لها امتد ست صفحات كتبها ميشال سابير (صص ١٧٥- ١٨٠ من المجلد) وتعريفًا أكثر تفصيلاً وتوثيقًا وذكرًا للمهم.

وتسمية للأشياء بمسمياتها في صفحات المسهمين (ص xi). ولكن يبدو أن درويش لم يسرف كثيرًا عندما كتب في يوم:

(تضيق بنا الأرض، تحشرنا في الممر الأخير، فنخلع أعضاءنا كي نمر،

وتعصرنا الأرض..

إلى أين نذهب بعد الحدود الأخيرة، أين تطير العصافير بعد السماء الأخيرة، أين تنام النباتات بعد الهواء الأخير؟..).

فـ (العصر) يلاحق درويش وشعبه وشعره حتى في المجلات الأكاديمية الرفيعة التي يفترض فيها أن تسهم في فهم (الآخر). وفي ترسيخ تفاهم أعمق بين الأمم والشعوب.

مراجع جامعية:

قوة الهوية

يناقش مانويل كاستيلز مفهوم «الهوية الإسلامية» في سياق حديثه عن «الهوية والمعنى في مجتمع الشبكة» في الفصل الأول من كتابه الذي يحمل عنوان «جنان جماعية: الهوية والمعنى في مجتمع الشبكة». وإذ يبدأ نقاشه هذا بمقبوس للغرنوشي يمضي على النحو التالي:

«**الطريق الوحيد للحاق بركب الحداثة هو طريقنا الذي حدده لنا ديننا، وتاريخنا، وحضارتنا**» (ص١٣) فإنه يؤكد أن الإسلام يعني «الخضوع لله» (ص١٤). وبهذا المعنى يبدو له « أن **الإسلام كله أصولي، فالمجتمعات ومؤسسات دولها ينبغي أن تنتظم حول مبادئ دينية لاخلاف عليها**» ص(١٤)، ولكنه يقصد بالأصولية ماحدده لها من معنى أي «**بوصفها هوية أعيد هوية إنشاؤها، وبوصفها مشروعًا سياسيًا يقع في المركز من عملية حاسمة تحدد إلى درجة كبيرة مستقبل العالم**» (ص١٤). (التشديد من قبل صاحب البحث)

ولما كان يرى أن «النزعة الإسلامية السياسية والهوية الإسلامية الأصولية تمتدان فيما يبدو في التسعينات في مجموع متنوع من السياقات الاجتماعية والمؤسسية، وتتصلان دائمًا بديناميات الاستبعاد الاجتماعي و/أو أزمة الدولة القومية» (ص٢٠) فإن يرجع- متابعًا في ذلك عددًا من الباحثين الإسلاميين- أن.. إنشاء الهوية الإسلامية المعاصرة يمضي بوصفه ردة فعل ضد التحديث البعيد المنال (سواء أكان هذا رأسماليًا أم اشتراكيًا)، والعقابيل البغيضة للعولمة، وسقوط المشروع القومي ما بعد الاستعماري» (ص١٩). وهكذا نراه يخلص من دراسته لعملية إعادة إنشاء الهوية الإسلامية في تسعينات القرن الماضي إلى أنه:

«من خلال مجموعة متنوعة من العمليات السياسية القائمة على ديناميات

كل دولة- قومية، وعلى شكل الإفصاح العولمي لكل اقتصاد، انبثق مشروع أصولي إسلامي في جميع المجتمعات، وأنشئت هوية إسلامية جديدة، ليس بالعودة إلى التراث، وإنما على مواد تراثية في تشكيل عالم جديد إلهي وجماعي، حيث يمكن أن تعيد الجماهير المحرومة والمثقفون الساخطون إنشاء معنى في عولمة بديلة لنظام العولمة الاستبعادي» (ص٢٠).

والمتتبع لإجراء كاستيل الموحي بدرجة عالية من الاتقان المزعوم للعمل البحثي، يلاحظ بسهولة أنه يستهدف حركة الصحوة الإسلامية التي ظهرت في مختلف المجتمعات الإسلامية احتجاجًا على فشل المشروع السياسي القومي/ الوطني، والاجتماعي، في تحقيق التنمية المطلوبة في هذه المجتمعات الإسلامية، أو في حمايتها من عمليات التوغل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للقوى الغربية الجديدة. وحتى يتحقق له ذلك فإنه يمضي إلى ربطها بالنزعة الأصولية حتى تسهل إدانتها معتمدًا في ذلك على تعريف مشروع «المجتمع الأمريكي للفنون والعلوم» الذي قام بدراسة الأصولية في الثمانينات في سقات اجتماعية ومؤسسية متنوعة، متبنيًا وجهة نظره في أن هذه النزعة رجعية دائمًا. فالأصوليون تبعًا لوجهة النظر هذه:

«انتقائيون. وقد يعتبرون تمامًا أنهم يتبنون الماضي الصافي كله، ولكن طاقاتهم تنصرف إلى تلك القسمات التي تعزز على النحو الأفضل هويتهم وتبقي حركتهم ملتئمة الشمل، وتبني الدفاعات من حولها، وتبقي الآخرين بعيدًا.. إن الأصوليين يقاتلون تحت راية الله، أو تحت علامات إشارة تجاوزية ما»(ص١٢)

ولما كان يرى أن الأصولية مصدر أكثر من الدين في إنشاء الهوية في مجتمع الشبكات، فإنه يرد تأكيد حركة الصحوة الإسلامية للهوية الإسلامية إلى نوع من الأصولية يلصقه بالإسلام كله، والذي يبدو له- كما بدا لكثير من المستشرقين- خضوعًا تامًا لله، وهو معنى ما أبعده عن معنى «**أسلم**» بمعنى إنقاذ محبة وإرادة لله.

وإذ يربط هذه الهوية الإسلامية التي يعاد إنشاؤها في المجتمعات الإسلامية بمناهضة الغرب وما يمثله من حداثة وتقدم فإنه يؤكد ضمنًا مناهضة الإسلام والمسلمين للتحديث والغرب معًا، أي أنه يجعل من هذه الهوية نقيضًا للغرب، وخطرًا ينبغي احتواؤه.

وفضلاً عن جهله بالعربية والقرآن الذي تشي به ترجماته الصوتية المليئة بالأخطاء، يبدو كاستيل مجرد باحث تابع يدور في فلك مراجعه التي يقبل نتائجها دون أدنى محاكمة، أو إحالة على واقع المجتمعات الإسلامية المتململة تحت وطأة النظام

العالمي الجديد. وهو يمثل بذلك أنموذجًا مكررًا للمعرفة الاستشراقية التي تستبعد الشرق وأهله من عملية إنتاجها التي تتم في داخل المؤسسة الاستشراقية الغربية دون كبير مساءلة أو نقد للافتراضات الضمنية التي تحكم تلك البنية العنيدة.

خاتمة

إن من يتفحص هذه الأمثلة يستطيع أن يتبين بسهولة مدى ماتنطوي عليه من أنظار عنصرية تشي بالكثير من كراهية الآخر والرغبة في احتوائه وتدجينه، الأمر الذي يتطلب الدعوة إلى ضرب أرفع من البحث والمعرفة المتصلين بالآخر، وتطهيرهما من فيروس القوة الذي طالما أفسد العلاقات الإنسانية ما بين الأمم والشعوب والثقافات- ضرب لايمكن تأسيسه إلا على مبدأ الشراكة المعرفية بين الشرق والغرب.

1-Edward w.said, Orientalism: Western Conceptions of the Orient, with a new afterward (penguin books, London, 1995),p.240

2- Edward said,"Roots of the west,s fear of Islam", By Ken Shulman International herald Tribune, Monday, March 11,1996.

3- John L.Esposito, editor- in chief, the Oxford Encyclopedia of the Modern Islamic World (oxford University press, New york and Oxford, 1995).

4- the Atlas of Literature, general editor Malcolm bradbury (De Agostini Editions, London, 1996).

5- The times guide to the Middle East: the Arab World and its Neuighbours, edited by peter sluglett and Marion (Times Books, London, 1996).

6- Identities, Edited by Kwame anthony Appiah and Henry louis Gates, jr. (the University of Chicago Press, Chicago and london, 1995).

7- Akeel Bilgrami, "What is a Muslim? Fundamental Commitment and Cultural Identity", in identities, ibid,pp.198-219.

8- Comparative Criticism: Volume 18: Spaces: cities, gardens and wilderness, Edited by E.S.Shaffer (Cambridge University Press, Cambridge, 1996).

٩- كتب سعيد عن كتاب شافر:

«وهو دراسة لاغنى عنها لأصول الرومنتية، وللنشاط الفكري الذي يشكل الأساس لقدر كبيرمما يجري في كولريدج، وبراوننغ، وجورج إليوت». (وانظر ص١٨ من الطبعة الإنكليزية الجديدة لـ الاستشراق الصادرة عام ١٩٩٥).

10- Manuel Castells, the power of Identity (Blakwell, Oxford,1997)

11- Glenn Robinson "the Palestinians",in the times guide to the Middle East, p.224.